المبحث الثانى

فى علل إسقاط التدبير

- الأسباب المعرفية لإسقاط التدبير
- مقامات إسقاط الإرادة والتدبير
- مقام التوكل
- مقام الرضا
- مقام المحبة
- مقام العبودية

obeikandl.com

obeikandl.com

علل إسقاط التدبير

أطلق الصوفية على علل ومبررات إسقاط التدبير مع الله مسمى مقامات اليقين فى إشارة إلى أن هذه العلل درجات من القرب والوصول إلى الله يجعل معها من المستحيل التدبير أو التفكير فى غير ذات الله عند البقاء فى حضرته .

وحدد بعضهم هذه العلل أو المقامات فى تسعة درجات هى : التوبة ، والزهد ، والصبر ، والشكر ، والخوف ، والرضا ، والرجاء ، والتوكل ، والمحبة وقالوا : إنه لا تصح كل واحدة من هذه المقامات إلاّ بإسقاط التدبير والاختيار مع الله . ويمكن إضافة العديد من هذه العلل أو المقامات التى يستحيل معها التدبير مع الله بوصفها شرط لازم لإسقاط التدبير والاختيار مثل المعرفة ، والكرامة ، والعبودية ، والمناجاة ، والقرب ، والفناء ، والعلم بحقيقة الذات والصفات والذى يسمى بمقام المعرفة بالإضافة إلى مقامات التقوى والولاية والاعتصام بالله .

وفى مقام التوبة قالوا : إن التائب كما يجب عليه أن يتوب من ذنبه كذا يجب عليه أن يتوب عن التدبير مع ربه ، لأن التدبير والاختيار من كبائر القلوب والأسرار ، والتوبة هى الرجوع إلى الله تعالى عن كل ما لا يرضاه لك ، لأنه شرك بالربوبية وكفر لنعمة العقل ولا يرضى الله لعباده الكفر . وكيف تصح توبة عبد مهموم بتدبير دنياه غافل عن حسن رعاياه .

ودليل صحة التوبة عند ابن عطاء الله السكندرى الإقبال على الله والإنابة إليه ، وفيه يقول : فالأجل ما علم من أن الخطأ غالب على الإنسان فتح له باب التوبة ودله عليها ودعاه إليها ووعده القبول إذا تاب والإقبال عليه إذا رجع إليه وأناب . وفيه قال ﷺ : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون». فأعلمك رسول الله ﷺ أن الخطأ لازم وجودك بل عين وجودك . وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمرا:١٣٥) .

وفى الزهد يميز ابن عطاء الله السكندرى بين زهد ظاهر فى التدبير الدنيوى وزهد باطن خفى فى التدبير مع الله ، وفيه يقول : وكذلك لا يصح الزهد إلاّ بالخروج عن التدبير فالزهد زهدان ، زهد ظاهر جلى وزهد باطن خفى . فالظاهر الجلى مثل الزهد فى فضول الحلال من المأكولات والملبوسات وغير ذلك ، والزهد الخفى فى الرياسة وحب الظهور ومنه الزهد فى التدبير مع الله .

وإلى جانب التوبه والزهد أضاف الصوفية العديد من الأسباب المعرفية إلى جانب المقامات والأحوال التى يحاولون الوصول إليها مثل مقام المعرفة والذكر والشهود حيث يلزم على المريد إسقاطه للتدبير والتفكير مع الله فى هذه الأحوال ، وذلك لأن الله تعالى يتولى تدبير الأسباب والعلل وجميع الأشياء من حيث إنها موجودة فى علمه تعالى ، وهى مقدرة فى علمه منذ الأزل ، فلا عالم بها إلا هو ولا فاعل لها إلا هو سبحانه .

* * *

الأسباب المعرفية لإسقاط التدبير

وفى مقام المعرفة بالذات والصفات حدد ابن عطاء الله السكندرى الأسباب العشرة لإسقاط التدبير مع الله فقال : اعلم أن الذى يحملك على إسقاط التدبير مع الله والاختيار أمور عشرة هى :

السبب الأول : هو علمك بسابق تدبير الله فيك ، وذلك أن تعلم أن الله كان لك قبل أن تكون لنفسك ، فكما كان لك مدبراً قبل أن تكون ولا شىء من تدبيرك معه كذلك هو سبحانه وتعالى مدبر لك بعد وجودك . فكن له كما كنت له ، يكن لك كما كان لك . ولذلك قال الحسين الحلاج : كن لى كما كنت لى فى حين لم أكن فسأل من الله أن يكون له بالتدبير بعد وجوده كما كان له بالتدبير قبل وجوده لأنه قبل وجود العبد كان العبد مدبراً بعلم الله ، وليس هناك للعبد وجود ، فتقع الدعوى منه لتدبير نفسه فيقع الخذلان لأجل ذلك . فإن قلت فإنه فى حين لم يكن عدم ، فكيف بتعلق التدبير به . فاعلم أن للأشياء وجوداً فى علم الله وإن لم يكن لها وجود فى أعيانها فالحق سبحانه وتعالى يتولى تدبيرها من حيث إنها موجودة فى علمه .

واعلم أن الحق سبحانه وتعالى تولاك بتدبيره على جميع أطوارك وقام لك فى كل ذلك بوجود إبرازك فقام لك بحسن التدبير يوم المقادير أى يوم قوله : ألست بربكم؟ قالوا : بلى . ومن حسن تدبيره لك حينئذٍ أن عرفك به معرفته وتجلى لك فشهدته واستنطقك وألهمك الإقرار بربوبيته فوحدته ، ثم إنه جعلك نطفة مستودعة فى الأصلاب وتولاك بتدبيره هناك حافظاً لك وحافظاً لما أنت فيه مواصلاً لك المدد بواسطة من أنت فيه من الآباء إلى أبيك آدم . وفى ذلك ما يلزمك أيها العبد الاستسلام إليه والتوكل عليه ويضطرك إلى إسقاط التدبير وعدم منازعة المقادير .

والسبب الثانى : هو أن تعلم أن التدبير منك لنفسك جهل منك بحسن النظر لها ، فإن المؤمن قد علم أنه إذا ترك التدبير مع الله كان له بحسن التدبير منه لقوله

تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ﴾ (الطلاق:٣) . فصار التدبير فى إسقاط التدبير والنظر فى النفس للنفس أى ترك النظر لها . فباب التدبير من الله لك هو إسقاط التدبير منك لنفسك .

والسبب الثالث : علمك بأن القدر لا يجرى على حسب تدبيرك ، بل أكثر ما يكون ما لا تدبر وأقل ما يكون ما أنت له مدبر ، والعاقل لا يبنى بناء على غير قرار . فمتى تتم مبانيك والأقدار تهدمها

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

وإذا كان التدبير منك والقدر يجرى على خلاف ما تدبر فما فائدة تدبير لا تنصره الأقدار؟ وإنما ينبغى أن يكون لتدبير لمن بيده أزمة المقادير .

والسبب الرابع : علمك بأن الله تعالى هو المتولى لتدبير مملكته علوها وسفلها غيبها وشهادته ، فكما سلمت له تدبيره فى عرشه وكرسيه وسمواته وأرضه فسلم له تدبيره فى وجودك إلى هذه العوالم . فإن نسبة وجودك إلى هذه العوالم نسبة توجب تلاشيك ، كما أن نسبة السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إلى الكرسى كحلقة ملقاة فى فلاة من الأرض ، والكرسى والسموات السبع والأرضون السبع بالنسبة إلى العرش كالحلقة الملقاة فى فلاة من الأرض ، فماذا عسى أن تكون أنت فى مملكته؟

فاهتمامك بأمر نفسك وتدبيرك لها منك جهل بالله بل الأمر كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ (الزمر:٦٧) فلو أن العبد عرف ربه لاستحى أن يدبر معه ولا قذف بك فى بحر التدبير إلاّ حجبتك عن الله . وتعلق القدرة بمقدورها والإرادة بمرادها والأسباب معزوله فى مشهدهم فلذلك طهروا من الدعوة لما هم عليه من وجود المعاينة وثبوت المواجهة . فكما سلمت لله تدبيره فى سمائه وأرضه فسلم له تدبيره فى وجودك ، وفيه جاء قول الحق : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ (غافر:٥٧) .

والسبب الخامس : علمك بأنك ملك لله ، وليس لك تدبير ما هو لغيرك ، فما ليس لك ملكه ليس لك تدبيره . وإذا كنت أيها العبد لا تنازع فيما تملك ولا ملك لك إلاّ بتمليكه إياك ، وليس لك ملك حقيقى ، وإنما هى نسبة شرعية أوجبت الملك لك من غير شىء قائم بوصفك تستوجب به أن تكون مالكاً فإن لا تنازع لله فيما يملكه أولى وأحرى . لا سيما وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (التوبة:١١١) ، فلا ينبغى لعبد بعد المبايعة تدبير ولا منازعة لأن ما بعته وجب عليك تسليمه وعدم المنازعة فيه ، فالتدبير فيه نقض لعقد البيعة . يقول ابن عطاء الله : دخلت على الشيخ أبى العباس المرسى رحمه الله يوماً فشكوت إليه بعض أمرى فقال : إن كانت نفسك لك فاصنع بها ما شئت ، ولن تستطيع ذلك أبداً وإن كانت لبارئها فسلمها له يصنع بها ما شاء . ثم قال : الراحة فى الاستسلام إلى الله وترك التدبير معه وهو العبودية .

والسبب السادس : علمك بأنك فى ضيافة الله ، لأن الدنيا دار الله ، وأنت نازل فيها عليه ، ومن حق الضيف أن لا يعول هماً مع رب المنزل .

والسبب السابع : هو نظر العبد إلى قيومية الله تعالى فى كل شىء وفيه قال الحق سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ (البقرة:٢٥٥) . فهو سبحانه وتعالى قيوم الدنيا والآخرة . قيوم الدنيا بالرزق والعطاء ، والآخرة بالأجر والجزاء . فإذا علم العبد قيومية ربه به وقيامه عليه ألقى قياده إليه وانطرح بالاستسلام بين يديه فألقى نفسه بين يدى ربه .

والسبب الثامن : هو اشتغال العبد بوظائف العبودية حتى يصل إلى درجة اليقين لقوله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ (الحجر:٩٩)، فإذا توجهت همته إلى رعاية عبوديته شغله ذلك عن التدبير لنفسه والاهتمام لها . قال الشيخ أبو الحسن رحمه الله : اعلم أن لله تعالى عليك فى كل وقت سهماً فى العبودية يقتضيه الحق سبحانه وتعالى منك بحكم الربوبية والعبد مطالب بذلك كله ومسئول

عنه وعن أنفاسه التى هى أمانة الحق عنده . فأين الفراغ لأولى البصائر عن حقوق الله حتى يمكنهم التدبير لأنفسهم والنظر فى مصالحها باعتبار حظوظها ومآربها . ولا يصل أحد إلى منة الله إلاّ بغيبته عن نفسه وزهده فيها .

والسبب التاسع : وهو أنك عبد مربوب وحق العبد أن لا يعول هما مع سيده مع اتصافه بالأفضال ، وعدم الإهمال فإن روح مقام العبودية : الثقة بالله والاستسلام إلى الله تعالى ، وكل واحد منهما يناقض التدبير مع الله تعالى والاختيار معه ، بل على العبد أن يقوم بخدمته والسيد يقوم له بمنته ، وعلى العبد القيام بالخدمة والسيد يقوم له بوجوه القسمة . فافهم قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ (طه:١٣٢) أى قم بخدمتنا ونحن نقوم لك بإيصال قسمتنا .

والسبب العاشر : عدم علمك بعواقب الأمور . فربما دبرت أمراً ظننت أنه لك ، فكان عليك . وربما أتت الفوائد من وجوه الشدائد والشدائد من وجوه الفوائد ، والأضرار من وجوه الأسرار والمسار من وجوه الضرر . فإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن عاقلاً أن يدبر مع الله ، ولا يدرى المسار فيأتيها ولا المضار فيتقيها؟

وفى ذلك قال الشيخ أبو حسن رحمه الله : اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما نعلم ، ويكفيك قوله تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢١٦).

وأرفع من هذه المراتب كلها الاستسلام إلى الله تعالى والتفويض له ، ومن استسلم إلى الله وحسن ظنه به لما هو عليه من عظمة الألوهية ونعوت الربوبية فهذا هو العبد الذى دل علية حقيقة الأمر ، وحرى أن يكون هذا من الذين قال رسول الله ﷺ فيهم : إن لله عباداً التسبيحة الواحدة منهم مثل جبل أحد . وكيف يدبر مع الله عبد هو فى حضرته وشاهد لكبرياء عظمته؟ [1] .

---

(١) ابن عطاء الله السكندرى : التنوير فى إسقاط التدبير صـ ٦٣- ٨٦

مقامات إسقاط التدبير

● مقام التوكل على الله

ذهب ابن عطاء الله السكندرى إلى أن تعلق إسقاط التدبير بمقام التوكل والرضا أبين وأظهر من تعلقه بسائر المقامات . والتوكل فى معناه العام هو الاعتماد الكلى على الله ، وهو التجرد عن كل عمل ذاتى فيه إرادة لصاحبه . وهذا المعنى جعل الصوفية يمتنعون عن التدبير أو السعى إلى الطلب ، فلا يسألون أحداً إلاّ الله الذى قال للمتوكلين عليه : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر:٦٠) .

فالمتوكل عندهم لا إرادة له وليس له حاجة ليسعى فى طلبها ، فهو يسلم أمره كله لله ، حتى إذا مرض لا يطلب علاجاً ولا يبحث عن دواء لأن الله تعالى مدبر الأمر كله وصاحب الشفاء والمرض ، وكل ما يقع فى الكون بإرادته ، وهو وحده القادر أن يكفيهم جميع حاجاتهم ومطالبهم .

ولذلك نرى البعض لا يعمل ولا يميل إلى العمل ومنهم من لا يطلب طعاماً أو شراباً ، وامتنع بعضهم عن السعى طلباً للرزق أو حتى تعاطى الدواء ، اعتقاداً بأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم ، وأن أحداً لا يستطيع أن يرزقهم ، أو أن يمنع الرزق عنهم ، فالله سبحانه وحده هو الرازق ، وقد قدر الأرزاق لجميع المخلوقات منذ الأزل ولا يستطيع أحداً أن يمنحهم شيئاً لم يقدره الله لهم فى الأزل .

وحقيقة التوكل عند الصوفية إسقاط إرادة الفرد فى سلطان إرادة الله ، والاعتماد الدائم على الله وطلب التوفيق منه وحده ، ولذا فالاعتماد على الله وحده مع إسقاط التدبير معه هو دلالة تمام الإيمان وتمكنه من القلب ، فالمؤمنون متوكلون ولا يكون المؤمن إلاّ متوكلاً على الله ، وفيه جاء قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران:١٢٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ﴾ (الطلاق:٣) ، وقال تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (إبراهيم:١٢) .

ولقد عبرت أقوال الصوفية عن حقيقة التوكل وعلاقته الوثيقة بإسقاط التدبير ، فقال ذو النون المصرى : التوكل هو ترك التدبير مع الله ، وهو ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة . والتوكل عند سهل بن عبد الله التسترى : هو الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد ، وأول هذا المقام أن يكون العبد بين يدى الله عز وجل كالميت بين الغاسل يقلبه كيف شاء لا يكون له حركة ولا تدبير .

والتوكل عند رديم بن أحمد : هو الثقة بالوعد . وعند أبى تراب النخشبى : التوكل هو طرح البدن فى العبودية وتعلق القلب بالربوبية والطمأنينة إلى الكفاية فإن أعطى شكر وإن منع صبر راضياً موافقاً للقدر . وعبر أحدهم عن التوكل بالزهد وترك الدنيا وأسبابها فقال : من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحضر لنفسه قبراً ويدفنها فيه وينسى الدنيا وأهلها ؛ لأن حقيقة التوكل لا يقوم له أحد من الخلق على كماله .

وهذا المعنى عبر عنه كل من ابن عطاء وابن عربى ، فقال ابن عطاء : التوكل أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها ، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها . أما عند ابن عربى فإن التوكل الحقيقى غير واقع من الكون فى حال وجوده ، فما هو إلاّ المعدوم فى حال عدمه ، ولا يزال المعدوم موصوفاً بالتوكل حتى يوجد ، فإذا وجد خرج عن التوكل .

● التوكل والأخذ بالأسباب

ذهب الصوفية على عمومهم وخاصة الزهاد الأوائل إلى أن وجود السبب لا ينافى التوكل ، ولإثبات رأيهم حرصوا على تفسير الحديث النبوى الشريف : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتعود بطاناً ». فقال ابن عطاء السكندرى فى كتابه التنوير فى إسقاط التدبير : إن الحديث يدل على الأمر بالتوكل على الله تعالى لا على نفى الأسباب ، بل إنه يدل على إثباتها (أى إثبات السعى والأخذ بالأسباب) لقوله ﷺ : « تغدو خماصاً وتروح بطاناً ». فقد أثبت لها غدوها ورواحها وهو سببها ، ونفى عنها الادخار ثقة منها بأن الله لا يضيعها فأنتم أيها المؤمنون أولى بذلك . أى أولى بالأخذ بالأسباب مع التوكل على الله .

ويؤيد هذا الرأى القشيرى فى رسالته بقوله : إن التوكل على الله لا ينافى سعى الصوفى إلى تحصيل رزقه ، وعلة ذلك عنده أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد أن تقدير كل شىء من قبل الله تعالى ، فإن تعسر شىء فبتقديره وإن اتفق شىء فبتيسيره ، وأن قول النبى ﷺ لمن أراد قيادة دابته أو حراستها فقال له : «اعقلها وتوكل» ، إشارة إلى ضرورة الأخذ بالأسباب .

ويشير الدكتور فيصل عون فى كتابه : التصوف الإسلامى الطريق والرجال إلى العلاقة بين السببية والتوكل ، مؤكداً على أن التوكل موقف يمارسه الصوفى لمواجهة أمور الحياة ومتطلباتها ، لأن التوكل فعل إرادى يشير إلى وجوب طرح الأسباب جانباً عن قصد وتدبر ، وأنه نوع من الأخذ بالأسباب والاعتماد على رضاء الله وقربه وتأييده ، وأنه ليس فى ذلك تناقض لأن المؤمنين لا بد أن يتوكلوا على الله ، وأن تمام التوكل على الله يتطلب إسقاط التدبير الإرادى مع الله مسببًا الأسباب وعلة العلل وموجد الموجودات كلها ، وأن كل ما عداه فأسباب وعلل ثانوية ، وهذه الأسباب والعلل غير متعارضة مع التقدير الأزلى ، فلا مبدل ولا مغير له ، ومن صفى قلبه يجب أن تخضع جوارحه لأحكام هذا القلب وأن هذه الأحكام لا بد أن تخضع لتوافق حكم الله [1] .

ويدلل ابن عطاء الله السكندرى فى كتاب التنوير على أن وجود السبب لا ينافى التوكل بقوله : اعلم أنه لا ينافى التوكل على الله فى أمر الرزق وجود السبب كما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله : « فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب». فقد أباح الطلب ، ولو كان منافياً لمقام التوكل على الله لما أباحه لأنه لم يقل إلاّ تطلبوا وإنما قال :«أجملوا فى الطلب». فقد أباح صلوات الله وسلامه عليه وجود الطلب والطلب من الأسباب وقال : أحل ما أكل المرء من كسب يمينه . والعديد من الأحاديث الدالة على جواز الأسباب بل على الحث عليها والندب إليها .

---

(١) فيصل عون - التصوف الإسلامى : الطريق والرجال صـ ١١٨- ١١٩

ولإثبات ذلك عملياً أورد ابن عطاء الله السكندرى العديد من الأدلة فى فوائد الأخذ بالأسباب فيقول تحت عنوان : إباحة الأسباب لإسعاد القلوب وتثبيت النفوس . إن فى الأسباب صيانة للوجوه عن الابتذال بالسؤال وحفظاً لبهجة الإيمان أن تزول ، كذلك فإن فى الأسباب والقيام بها رحمة بالمتجردين ومنة من الله على المتوجهين لطاعته والمتفرغين لها ، ولا قيام لأهل الأسباب بها ، فكيف كان يصح لصاحب الخلوة خلوته ولصاحب المجاهدة مجاهدته ، فجعل الحق تعالى الأسباب كالخدمة للمتوجهين إليه والمقبلين عليه .

كذلك فإن الحق تعالى أراد من المؤمنين أن يتألفوا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات:١٠) ، فكانت الأسباب سبباً لتعارفهم وموجبة لتوادهم ولا ينكر الأسباب إلاّ جاهل أو عبد لمنن الله غافل . والأخذ بالأسباب لازم عملاً لأن الله قال لمريم : ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ (مريم:٢٥) ولو شاء لأدنى الجزع من غير هزها إليها ولكن كل شىء له سبب . وفى قوله ﷺ : «تغدو خماصاً وتروح بطانا»، فيه إثبات للأسباب أيضا ، لأن غدوها ورواحها سبب أقيمت فيه ، فهو كغدو الآدميين إلى مكاسبهم ورواحهم إليها . والقول الفصل فى ذلك أنه لا بد لك من الأسباب وجوداً ولا بد لك من الغيبة عنها شهوداً فالمؤمن مطالب بالأخذ بأسباب الرزق والتوجه إليه والإجمال فى الطلب . ومع ذلك فإن من طلب الرزق مكباً عليه مشتغلاً عن الله تعالى فليس مجملاً فى الطلب ومن طلبه على غير ذلك فهو مجمل . فرب تارك سبباً (شيئاً) وداخل فى غيره ليجد الثروة والراحة فأتعب وقوبل بوجود التعسر عقوبة لوجود الاختيار . لأن طلبك للتجرد مع إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية وطلبك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد انحطاط عن الهمة العلية .

وقيل للمتسببين ، أى الآخذين بالأسباب فى تدبير أمور حياتهم : لو تركتم الأسباب وتجردتم لأشرقت لكم الأنوار ، ولصفت منكم القلوب والأسرار ، وقد يكون الإجمال فى الطلب أن تطلب من الله تعالى ويكون قصدك مناجاته لا عين ما طلبت

وإنما يكون الطلب توسلاً لها . ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رحمه الله : لا يكن همك فى دعائك الظفر بقضاء حاجتك فتكون محجوباً عن ربك ولتكن همتك مناجاة مولاك .

وقد يكون الإجمال فى الطلب أن تطلب وأنت تشهد أنك مطلوب بما قسم لك وأنك مقصود به وليس طلبك موصلاً إليه فيكون طلبك وأنت غريق فى بحر العجز مغموس فى وجود الفاقة . وقد يكون الإجمال فى الطلب أن لا تطلب بحظ البشرية ولكن لإظهار العبودية كما حكى أن سمنون (أبو الحسن سمنون بن حمزة الخواص واشتهر باسم سمنون المحب) كان يقول : وليس لى فى سواك حظ فكيفما شئت فاختبرنى .

وقد يكون الإجمال فى الطلب أن تطلب من الله ما يكفيك ولا تطلب منه ما يطغيك غير متطلع إلى ما سوى الكفاية بالشره ولا منبسطاً إليه بالرغبة وقد علمنا ذلك رسول الله ﷺ إذ قال :«اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً». والطالب لما زاد على الكفاية ملوم وطالب الكفاية غير ملوم بذلك .

● **مقام الرضا**

وصفت رابعة العدوية هذا المقام عندما هتف رجل من العباد فى مجلسها قائلاً: اللهم ارض عنى ، فقالت : لو رضيت عن الله لرضى عنك . فقال الرجل : وكيف أرضى عن الله؟ قالت : يوم تسر بالنقمة سرورك بالنعمة لأن كلاهما من عند الله [1].

وقد أطلق الصوفية على هذا المقام العديد من الأسماء فهو مقام الكرامة ومقام الولاية ومقام التفويض وترك التدبير مع الله . وفى هذا المعنى ذكر أبو بكر الحسين ابن على بن يزدنيار : إن رضا الخلق عن الله تعالى رضاهم بما يفعل ، ورضاه عنهم أن يوفقهم للرضا عنه . وذكر محمد بن عليان النسوى رحمه الله : أن آيات الأولياء وكراماتهم رضاهم بما يسخط العوام من مجارى المقدور [2].

---

(١) سليمان سامى محمود : الحب الإلهى . مراجعة طه عبد الرءوف سعد ، دار الخلود للتراث ، القاهرة . ٢٠٠٦ صـ ٣٤٥

(٢) عبد الوهاب الشعرانى : الطبقات الكبرى . جـ١ ، صـ ٢٤٦،٢٥١

واتفق شيوخ التصوف السنى وعلى رأسهم الشيخ أبو الحسن الشاذلى وتلميذه ابن عطاء الله السكندرى على أن مقام الرضا هو مقام الكرامة الذى تسقط فيه الإرادة الإنسية وتبقى الإرادة الإلهية وحدها . ويدلل ابن عطاء الله السكندرى فى كتابه التنوير فى إسقاط التدبير على هذا المعنى فيقول : إن التدبير والاختيار من أشد الذنوب والأوزار فإذا أردت الوصول إلى المراد فذلك بأن لا يكون معه مراد ، ولذلك لما قيل لأبى يزيد البسطامى : ما تريد؟ قال : أريد أن لا أريد . فلم تكن أمنيته من الله ولا طلبه منه إلاّ سقوط الإرادة معه لعلمه أنها أفضل الكرامات وأجل القربات ، فالكرامة الكامنة الكاملة الحقيقية إنما هى ترك التدبير مع الله والتفويض لحكم الله[1].

ولذلك جعل الصوفية الكرامة والقناعة والتوفيق والتوكل واليقين كلها من متطلبات الرضا الإلهى ، لأن فى هذه الأحوال كلها لا يثبت الرضا سوى إسقاط المريد لتدبيره بالكلية مع الله .

وتظهر العلاقة بين الرضا واليقين حين يميز أبو الحسن التاذلى بين كرامة اليقين وكرامة الاقتداء والمخادعة بقوله : إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان ، كرامة الإيمان لمريد الإيقان وشهود العيان ، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة ، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهم فهو عبد مفتر كذاب ، أو ذو خطأ بالعلم والعمل بالصواب . وعلى ذلك فكل كرامة لا يصحبها الرضا من الله وعن الله فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص هالك مثبور . واعلم أن الكرامة لا تكون كرامة حتى يصحبها الرضا عن الله ، ومن لازم الرضا عن الله ترك التدبير معه وإسقاط الاختيار بين يديه .

ويرى ابن عطاء الله السكندرى أن الرضا ملجأ كل محتاج إلى الله وسبيل السعادة لكل مشتاق والسلامة لكل مبتلى ، ويقول فى ذلك : اعلم وفقك الله أن لله

---

(١) ابن عطاء الله السكندرى : التنوير فى إسقاط التدبير . ط ١٩٧١ ، صـ ١٠٩-١١٠ ، ط ١٩٧٣، صـ٨٥-٨٦

عباداً خرجوا عن التدبير مع الله بتأديبه الذى أدبهم وبتعليمه الذى علمهم ففسخت الأنوار عزائم تدبيرهم ، ودكت المعارف والأسرار حيال اختيارهم فنزلوا منزل الرضا فوجدوا نعيم المقام ، فاستغاثوا بالله واستصرخوا به ، خشية أن يشغلهم حلاوة الرضا فيميلوا إليها بمساكنة أو يجنحوا لها بمراكنة .

واعلم أن هلاك ابن نوح عليه السلام إنما كان لأجل رجوعه إلى تدبير نفسه وعدم رضاه بتدبير الله الذى اختاره لنوح ومن كان معه فى السفينة فقال له نوح عليه السلام : ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(هود:٤٢) ، قال : ﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾(هود:٤٣) ، قال نوح : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾(هود:٤٣) فاعتبر أيها العبد بذلك فإذا تلاطمت عليك أمواج الأقدار فلا تتراجع إلى جبل عقلك الباطل (الباطن) لئلا تكون من المغرقين فى بحر القطيعة ولكن ارجع إلى سفينة الاعتصام بالله والتوكل عليه .

والرضا عند الصوفية دليله الاعتصام بالله والتوكل عليه وإسقاط التدبير معه ، وفيه يقول ابن عطاء الله السكندرى : أصبحت وهواى فى مواقع قدر الله ، فقد علمت أن إسقاط التدبير والاختيار أهم ما يلتزمه الموقنون ويطلبه العابدون وأشرف ما يتحلى به العارفون . فالرضا استسلام تام لله وهو باطن الإسلام فالمسلم من أسلم نفسه إلى الله فكان ظاهراً بامتثال أمره وباطناً بالاستسلام لقهره وتحقيق مقام الاستسلام بعد المنازعة فى أحكامه والتفويض له فى نقضه وإبرامه ، فمن ادعى الإسلام طولب بالاستسلام .

ومثال ذلك قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة:١٣١) ، فلم يستنصر بغير الله ولا جنحت همته بغير الله بل استسلم لحكم الله مكتفياً بتدبير الله له عن تدبيره لنفسه وبرعاية الحق له عن رعايته لها . وهذه المعانى جمعها ابن عطاء الله السكندرى للتعبير عن مقام الرضا من خلال معانى التفويض

والاستسلام فقال : اعلم أن الحق سبحانه وتعالى بسط إبراهيم عليه السلام بنور الرضا وأعطاه روح الاستسلام وصان قلبه عن النظر إلى الأنام فما كانت النار عليه برداً وسلاماً إلاّ لما كان قلبه مفوضاً إلى الله استسلاماً فمن الاستسلام كان عليه السلام . وعن تصحيح باطن المقام (باطن القيام) كان ما ظهر عليه من الإجلال والإعظام .

وفى قصة إبراهيم عليه السلام هذه بيان للمعتبرين وهداية للمتبصرين ، وهو أن من خرج عن تدبيره لنفسه كان الله سبحانه وتعالى هو المتولى بحسن التدبير له ، ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام لما لم يدبر لنفسه ولا اهتم بها بل ألقاها إلى الله تعالى وأسلمها إليه وتوكل فى كل شأن عليه ، فلما كان ذلك كان عاقبة استسلامه وجود السلامة والإكرام وبقاء الثناء عليه على مر الأيام ، وقد أمرنا الله تعالى أن لا نخرج عن ملته وأن نرعى حق تسميته بقوله تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (الحج:٧٨) ، فحق على كل من كان إبراهيمياً أن يكون عن تدبيره لنفسه بريا ومن منازعته الله خلياً ومن اعتراضه عرياً . قال تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ (البقرة:١٣٠) . وملته لازمها التفويض إلى الله تعالى والاستسلام فى واردات الأحكام واعلم أن المراد هو أن لا يكون لك مع مراد الله مراد [١].

● **مقام المحبة**

المحبه عند الصوفية هى الإرادة ، أو هى إرادة المحبة لأن محبة الله للعبد تعنى أن سبحانه قد تلطف عليه ورضى عنه وأراد أن ينعم عليه بمحبته . ومن الناحية البشرية فإن المريد لا يستطيع مواصلة الطريق دون محبته لله ومحبة الله له ، وأن المقامات التى يرقى إليها المريد لا يتنقل إليها إلاّ إذا أعانه الله عليها بمحبته أو منحه الله حال المحبة . ولذا يعتبر الصوفية أن المحبة مكافأة إلهية وعلامة ربانية وهى الباعث للتحرك نحو المحبوب .

---

(١) ابن عطاء الله السكندرى : كتاب التنوير ط ١٩٧١ صـ ١٦٦ ، ط ١٩٧٣ صـ ١٢٦ .

والمحبة عندهم حال يجده المرء فى نفسه دون أن يستطيع التعبير عنه أو الإفصاح به أو نقله إلى الغير . وقد عبر جلال الدين الرومى عن المحبة كروح فاعلة وإرادة دافعة تقود المريد إلى حال الشهود ، فذكر أن الروح التى ليست شعارها الحب الحقيقى فمن الخير ألاّ توجد ، فليس وجودها سوى عار ، وأنشد يقول :

كن ثملاً من الحب فإن الوجود محبة

والحب الحقيقى عندهم هو ترك الإرادة لأن إسقاط التدبير مع الله دليل المحبة الخالصة والاتصال الروحى بالله ، ويستشهدون على ذلك بالحديث القدسى :« لا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى يتكلم به ، ويده التى يبطش بها ».

فالمحب عندهم ليس لديه الوقت للتفكير أو التدبير فى أمر دنيوى لأنه فى مقام المحبة كما يقول ابن عطاء الله السكندرى : المحب مستغرق فى حب محبوبه ، وترك الإرادة معه هو عين مطلوبه ، وليس يتسع وقت المحب للتدبير مع الله . وفى ذلك قالوا : من ذاق شيئاً من خالص محبة الله ألهاه ذلك عما سواه . وكذلك الراضى قد اكتفى بسابق تدبير الله فيه ، فكيف يكون مدبراً معه ، وهو قد رضى بتدبيره ألم تعلم أن نور الرضا يغسل من القلوب غثاء التدبير [1].

وهذه العلاقة بين مقام المحبة والرضا وأيهما أتم وأكمل للمريد يوضحها ابن عطاء الله السكندرى فى كتاب لطائف المنن حين يقول : اعلم أن المحبة من أجلّ مقامات اليقين حتى اختلف أهل الله أيهما أتم : مقام المحبة أم مقام الرضا ، وإن كان الذى نقول به إن مقام الرضا أتم لأن المحبة ربما حكم سلطانها على المحب وقوى عليه وجود الشغف فأداه ذلك إلى طلب شهود ما لا يليق بمقامه ، ألا ترى أن المحب يريد دوام شهود الحبيب ، والراضى عن الله راضى عنه أشهده أم حجبه والمحب يحب

---

(١) ابن عطاء الله السكندرى : التنوير فى إسقاط التدبير : طـ١٩٧١ صـ ٦٢ - ٦٣ ، طـ ١٩٧٣ صـ ٥٠-٥١

دوام الوصلة ، والراضى عن الله راض عنه وصله أو قطعه ، إذ ليس هو ما يريد لنفسه ، بل إنما هو مع ما يريد الله له ، والمحب طالب لدوام مراسلة الحبيب والراضى لا طلب له [1].

أما علاقة المحبة بالفناء والتوحيد الخالص لله فيصورها ابن عربى فى كتاب التجليات وخاصة تجلى خلوص المحبة ، وتجلى تصحيح المحبة ، فيقول فى تجلى خلوص المحبة حبيبى قرة عينى أنت منى بحيث أنا ، لزيمى قسيمى تعالى الله لا بل أنت ذاتى ، هذى يدى ويدك ، ادخل بنا إلى حضرة الحبيب الحق بصورة الاتحاد حتى لا نمتاز فنكون فى العين واحدا ، ما ألطفه من معنى ما أرقه من مزج ، رق الزجاج وراقت الخمر . . فتشابها فتشاكل الأمر ، فكأنما خمر ولا قدح ، وكأنما قدح ولا خمر ، عسى تعطل العشار ، وتمحى الآثار وتخسف الأقمار وتكور الشمس النهار وتنطمس نجوم الأنوار . .

فنفنى ثم نفنى ثم نفنى كما يفنى الفناء بلا فناء
ونبقى ثم نبقى ثم نبقى كما يبقى البقاء بلا بقاء

أما فى تجلى تصحيح المحبة فيقول ابن عربى من صحت معرفته صح توحيده ، ومن صحت محبته ، فالمعرفة لك والتوحيد له ، والمحبة علامة بينك وبينه بها تقع المنازلة بين العبد وربه [2].

وإذا كان محى الدين بن عربى وجلال الدين الرومى وابن عطاء الله السكندرى من كبار الصوفية الذين عبروا عن مقام المحبة من الناحية النظرية والتعبير عن أحوالهم النفسية فقد سبقتهم رابعة العدوية ت ١٨٥هـ فى التعبير عن المحبة الإلهية

---

(١) ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن . تحقيق عبد الحليم محمود . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٢ صـ ٥٩

(٢) محى الدين بن عربى ت ٦٣٨هـ : التجيات . تحقيق وتقديم أيمن حمدى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢ ، صـ ٨٥ ، ٨٦- ٨٨

ووصف قدر المحبوب عند الله حتى سميت رابعة بصاحبة مدرسة الحب الإلهى حتى غلب حب الله على قلبها وأهوائها وإرادتها ووقعت عليها الخلة من الله ، فسميت بشهيدة الحب الإلهى ؛ لكثرة ما روت من أشعار فى المحبة الإلهية الخالصة ولكثرة مناجاتها لربها وصفاء قلبها وإسقاطها للتدبير الكلى مع الله فى جميع أحوالها .

ومن أقوالها فى مقام المحبة : إن الكون كله خلق بالمحبة ، وهل يخلق الله جل جلاله إلاّ ما يحب ، ونحن حينما نحب الجمال والكمال فى شتى صوره فإننا فى الحقيقة إنما نحب الله جلّ جلاله . وعندما سئلت رابعة كيف حبك لرسول الله ﷺ قالت : والله إنى لأحبه حباً شديداً ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين .

ووصفت عبدة بنت أبى شوال خادمة رابعة التى لازمتها طوال حياتها قالت : كانت لرابعة أحوال شتى فمرة يغلب عليها الحب ، ومرة يغلب عليها الأنس ، ومرة يغلب عليها الخوف ، ومرة يغلب عليها البسط ، وإنى سمعتها فى حال الحب تقول :

حبيبى ليس يعدله حبيب ... ولا لسواه فى قلبى نصيب
حبيبى غاب عن بصرى ... وشخصى ولكن فى فؤادى لا يغيب
لقد جعلتك فى الفؤاد محدثى ... وأبحت جسمى من أراد جلوس
فالجسم منى للجليس مؤانس ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيس
يا رجائى وراحتى وسرورى ... قد أبى القلب أن يحب سواكَ
أحبك حبين حب الهوى ... وحب لأنك أهل لذاكَ
فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواكَ
وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك لى الحجب حتى أراكَ
يا حبيب القلب ما لى سواك ... فارحم اليوم مذنباً قد أتاكَ

ولقد عبرت أقوال الصوفية فى المحبة وأنواعها عن وصولهم لمقام اليقين الذى تسقط فيه الإرادة والتدبير الكلى مع الله ، وقد جمع هذه الأقوال أبو القاسم الجنيد البغدادى فى رسائله تحت عنوان صفة المحب لحبيبه وقال : محبة المحب كحب

الحبيب ، والمحبة أمانة الله ولكن المحبة الدائمة لا الفرعية ، وإن المحب إذا ذكر حبيبه حرم محبته . وقال ذو النون المصرى ت ٢٤٥هـ : المحبة خوف ترك الحرمة مع إقامة الحرمة . والمحبة على ثلاثة أوجه : محبة الاكتساب ومحبة بر وعطاء ومحبة المحب لذاته ، فمن أحبه للسبب فهو على راحة ، ومن أحبه لغير سبب فهو المبتلى الممتحن .

وقال أبو يزيد البسطامى ت ٢٦١هـ : المحبة معيار الله يظهر فيه القريب من البعيد ، والمحبة استقلال الكثير من نفسه واستكثار القليل من حبيبه . وقال أيضاً : الطريق لا تخلو من المحبة وذلك ممزوج ، فإذا شرب فلا ينام المحب إلاّ من سروره ولا يأكل إلاّ من حزنه ، ولا يتكلم إلاّ منه ، وقال حرم الله المحبة إلاّ على الوافى بعهده . وقال سهل بن عبد الله التسترى ت ٢٨٣هـ : المحبة متابعة الطاعة ومخالفة المعصية . وقال أبو الحسين النورى ت ٢٩٥هـ : إذا أحببت فى سبب فحبك السبب لا المسبب ، والتوحيد هو المحبة ، فعلى قدر التوحيد تكون المحبة .

وجمع أبو القاسم الجنيد صفات المحبة الإلهية وما يترتب عليها من علو قدر المحبوب عند الله فى كتاب القصد إلى الله تحت عنوان : فيما ينبغى للقاصدين من رعاية النفس والروح والقلب فقال : المحبة أن تحب ما يحب الله تعالى فى عباده وتكره ما يكره الله تعالى فى عباده : يا معشر القاصدين إلى الله تعالى حق لكم أن لا تجهلوا قدر أنفسكم فى كل شىء وأن لا تذلوا أنفسكم لغيره ، وأن لا تلتفتوا منه إلى غيره إجلالاً لحرمته ، وحق لمن أقامه الله تعالى مقام أصفيائه وأهل قربه أن لا يصحب أحداً من عامة خلقه ولا يعمل بهوى نفسه هيبة لجلال عظمته ، وحق لمن سقاه الله بكأس محبته ووجد لذائذ أنسه ومناجاته أن لا يشتغى بلذائذ غيره ، ولا يأوى إلى قرب غيره استحقاقاً لفردانيته ، وحق لكل من ألبسه الله تعالى لباس أصفيائه ورواه برواء أحبابه أن لا يدنس بدنس هواجس نفسه وغبارها ويطلب الأعواض من محبوبه ومعبوده قياماً باستحقاق الوحدانية وحرمة جلاله [1].

---

(١) عبد الرحمن السلمى : طبقات الصوفية . تحقيق نور الدين شربين صـ ١٦٣، أبو القاسم الجنيد : رسائل الجنيد تحقيق وتقديم جمال رجب . دار العلوم بالفيوم ٢٠٠٣ ، صـ ١٠ ، ٦٥

وقال أبو محمد رديم بن أحمد ت ٣٠٣هـ : المحبة هى الوفاء مع الوجد والحرمة مع طلب الوصل . وقال ابن عطاء (على بن سهل الأصفهانى ت ٣٠٩هـ) : مقام المحبة مقام العقاب ، والمحبة هى محبة الأولياء ، فمن ادعى المحبة واشتغل بغير المحبة والحبيب فقد استهان على الله عز وجل . وقال أيضاً : المحبة الغيرة عن ذكره بعد صدقه لغيرته . وقال أبو على الروزبارى ت ٣٢٢هـ : المحبة هى الموافقة وما لم تخرج من كليتك لم تدخل فى حد المحبة . وقال أبو بكر الشبلى ت ٣٣٤هـ: المحبة لله وحده وقال : حرم الله المحبة على صاحب العلاقة ، وقال أيضاً : المحبة هى الفراغة للحبيب وترك الأعراض عند القريب . وقال : صراط أولياء الله محبة الله ، فالمحبة لله أى الخالصة له وحده . وهكذا عبرت أقوال الصوفية عن نوع واحد من المحبة هى المحبة الخالصة لله وحده دون سواه ، فهى وحدها المبتغى والمرتجى من سلوكهم وإرادتهم وتفكيرهم وجميع حياتهم فالإرادة عندهم هى إرادة المحبة ، أما المحبة الإنسية للطبيعة والأشياء وسائر المخلوقات فقد اهتم بها الفلاسفة وفى مقدمتهم مسكويه (أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه) ت٤٢١هـ فيلسوف المحبة ليخصص أهم كتبه وهو تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لفضيلة المحبة ويجعل المحبة سبباً للسعادة والرضا والنجاح وطهارة النفس وشفائها ، ثم يعالج حقيقة المحبة وأنواعها وأجناس المحبات وأسبابها وكيف تدعو الشريعة إلى الأنس والمحبة وذلك فى المقالة الخامسة من كتاب التهذيب التى جعلها فى أنواع المحبة .

وإذا كان اهتمام الصوفية قد انحصر فى نوع واحد من المحبة هو المحبة الإلهية ومحاولة بيان فضلها بوصفها مقام رفيع يسقط عن المريد التدبير مع الله ، فإن مسكويه قد تناول المحبة الإنسية ودورها الاجتماعى الفاعل عند تحصيل أسبابها ولأن من عاون على تحصيلها وصار سبباً للوصول إليها فقد أفلح . فالمحبة الإنسية والتى تحدث بين الناس خاصة تكون بإرادة وروية وتكون فيها مجازاة ومكافأة وهى تقبل النقصان . أما المحبة الإلهية فإنها لا تقبل النقصان ولا تقدح فيها السعاية ولا يعترض عليها الملك ولا تكون إلاّ بين الأخيار فقط . وأما المحبات التى تكون بسبب المنفعة

واللذة فقد تكون بين الأشرار وبين الأخيار والأشرار ، إلاّ أنها تنقضى وتنحل مع انقضاء المنافع واللذائذ لأنها عرضية . ويرجع مسكويه سبب المحبة الإنسانية إلى هذا الأنس الطبيعى فى الإنسان .

ثم يؤكد مسكويه على أن الشريعة تدعو إلى الأنس بالمحبة وخاصة تلك المحبة التى تكون بين الأخيار ، وهى لا تكون للذة خارجة أو لمنفعة زائلة لأن مقصدها الخير والتماس الفضيلة ، فإذا أحب أحدهم الآخر لهذه المناسبة أو السبب لم تكن بينهم مخالفة ولامنازعة ونصح بعضهم بعضاً ، وتلاقوا بالعدالة والتساوى فى إرادة الخير وهذا التساوى فى النصيحة وإرادة الخير هو الذى يوحد كثرتهم . وأما محبة العبد لخالقه فهى المحبة التى لا تشعر بها الانفعالات ولا تطرأ عليها الآفات فهى تخلص للعالم الربانى وحده خاصة ، ولا سبيل لغيره إليها [1].

● مقام العبودية

يرى الصوفية أن إسقاط التدبير مع الله تعالى من أهم لوازم العبودية ، خاصة العبودية الظاهرة فى الصبر والشكر والرضا والتقوى والقناعة واليقين فهذه دلائل العبودية عندهم ، وفى هذا المعنى جاء قول ابن عطاء الله السكندرى : ومن لوازم العبودية إسقاط التدبير مع الله تعالى ، وكذلك لا يصح الشكر إلاّ لعبد ترك التدبير مع الله تعالى ، لأن الشكر كما قال الجنيد رحمه الله : هو أن لا تعصى الله بنعمة ، ولولا العقل الذى ميزك الله به على أشكاله وجعله سبباً لكمالك لم تكن من المدبرين معه ، إذ الجمادات والحيوانات لا تدبير لها مع الله لفقدان العقل الذى من شأنه النظر إلى العواقب والاهتمام بها .

والعبودية عندهم لها متطلباتها مثل الورع والتوكل والرضا والزهد والتقوى ، والتقوى عند الصوفية دليل العبودية الخالصة لأن التقوى بها ضمان الرزق لقوله تعالى :

---

(١) مسكويه : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق . ط القاهرة صـ ١٤٩-١٥٢ ، ١٥٧-١٦٠ ، وفى طبعة بيروت : تحقيق حسن تميم . صـ ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٣١، ١٣٣

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ (الجن:١٦) ، فالتقوى مفتاح الرزقين : رزق الدنيا ورزق الآخرة ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾

(المائدة:٦٥-٦٦)

وعند تحقق اليقين بضمان الرزق فى مقام العبودية فلا حاجة للعبد للتفكير أو التدبير ، وفيه قال ابن عطاء الله السكندرى : إن إسقاط الإرادة لا يخرج العبد عن عبوديته المقتضاة منه لأن الطريقة الموصلة إلى الله تعالى هى محور الإرادة ، وفيه قال الشيخ أبو الحسن رحمه الله : ولن يصل الولى إلى الله ومعه تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته ، فإذا أردت الإشراق والتنوير فعليك بإسقاط التدبير ، واسلك إلى الله كما سلكوا تدرك ما أدركوا .

ومقام العبودية عند الصوفية هو مقام الرعاية والحفظ والاعتصام بحبل الله ، فالتحقق بمقام العبودية يقى العابد من مكائد الشيطان ، لأن قلبه ليس للشيطان عليه سبيل أو سلطان بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ (الحجر:٤٢) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (النحل:٩٩) ، فقلوب ليس للشيطان عليها سلطان من أين تطرقها وساوس التدبير أو يرد عليها وجوه التكدير . ففى الآية كما يقول ابن عطاء : بيان أن من صحح الإيمان بالله والتوكل على الله فلا سلطان للشيطان عليه ، لأن الشيطان إنما يأتيك من أحد وجهين : إما تشكيك فى الاعتقاد وإما بركون إلى الخلق والاعتماد . فأما التشكيك فى الاعتقاد فالإيمان ينفيه ، وأما السكون أو الركون إلى الخلق والاعتماد عليهم فالتوكل عليه يتقيه ، وذلك لأن : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (البقرة:٢٥٧) .

فالعابد المؤمن إذا وردت عليه خواطر الاضطراب والتدبير فهى عابرة ولا تثبت لها ومضمحلة لا وجود لها لأن نور الإيمان قد استقر فى قلوب المؤمنين وأخمدت

أنواره نفوسهم وملأ إشراقهم قلوبهم وشرع ضياؤه صدورهم . فالشيطان لا يمكن أن يأتى إلى القلوب الدائمة اليقظة لأنه إنما يورد طيف الغفلة والهوى على القلوب فى حين مقامها بوجود غفلتها ومن لا نوم له فلا طيف يرد عليه ، فإذا مسهم طيف من الشيطان فهذا الطيف غير ضار بالمتقين ، لأن ما يورده الشيطان على قلوبهم بمثابة الطيف الذى تراه فى مقامك فإذا استيقظت فلا وجود له . فالذكر ميدان اللسان والتذكر ميدان القلب ، وطيف الهوى لما ورد إنما ورد على القلوب لاعلى الألسنة فالذى يتقيه إنما هو التذكر الذى يحل محله ويمحق فعله [1].

ويدلل ابن عطاء الله السكندرى على أهمية مقام العبودية وفضله بالعديد من الأدلة النقلية والعقلية فيقول : اعلم أن أجلّ مقام أقيم العبد فيه : مقام العبودية . وكل المقامات إنما هى كالخدمة لهذا المقام والدليل على أن العبودية أشرف مقام ، قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ (الإسراء:١) ولما خير رسول الله ﷺ بين ملكاً أو نبياً عبداً ، اختار العبودية لله تعالى ففى ذلك أول دليل أنها من أفضل المقامات وأعظم القربات وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦) . والعبادة ظاهر العبودية والعبودية روحها ، وإذ قد فهمت هذا فروح العبودية وسرها إنما هو ترك الاختيار وعدم منازعة الأقدار . فتبين من هذا أن العبودية ترك التدبير والاختيار مع الربوبية . فإذا كان لا يتم مقام العبودية الذى هو أشرف المقامات إلاّ بترك التدبير فحقيق على العبد أن يكون له تاركاً وللتسليم لله وللتفويض له سالكاً ليصل إلى المقام الأكمل والمنهج الأفضل .

وفى هذا المعنى قال أبو العباس المرسى رحمه الله : تفطن رحمك الله أن الخروج عن الإرادة هو أفضل العبادة ودليل ذلك : بنو إسرائيل والتيه فهو دليل على خطر التدبير مع الله . واعلم أن بنى إسرائيل لما دخلوا التيه ورزقوا المن والسلوى واختار الله تعالى ذلك رزقاً رزقهم إياه ، يبرز من عين المنّة من غير تعب منهم

---

(١) ابن عطاء الله السكندرى : كتاب التنوير ط ١٩٧١ صـ ١٢٩ ، ط ١٩٧٣ صـ ١٠١ .

ولا نصب ، فرجعت نفوسهم الكثيفة لوجود إلف العادة والغيبة عن شهود تدبير الله تعالى إلى طلب ما كانوا يعتادونه ، فقالوا : ﴿ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:٦١) ، وذلك لأنهم تركوا ما اختار الله لهم مما يليق لما اختاره لأنفسهم فقيل لهم على طريقة التوبيخ لهم : أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير؟ اهبطوا مصرا . وسر الاعتبار أتستبدلون مرادكم لأنفسكم بمراد الله لكم؟ أتستبدلون الذى هو أدنى وهو ما أردتموه بالذى هو خير وهو ما أراد الله لكم؟اهبطوا من سماء التفويض وحسن الاختيار والتدبير منا لكم إلى أرض التدبير والاختيار منكم لأنفسكم موصوفين بالذلة والمسكنة لاختياركم مع الله وتدبيركم لأنفسكم مع تدبير الله [1].

والعبودية عند الصوفية هى المحبة الخالصة لله وهى حكمة اختبار الله للإنسان ، وفى هذا المعنى يقول ابن عطاء الله : إن الحق تعالى أراد أن يختبر هذا الآدمى فأحوجه لأمور شتى لينظر أيدخل فى استجلابها بعقله وتدبيره أو يرجع إلى الله فى قسمته وتدبيره . فإن الله سبحانه أراد أن يتحبب إلى هذا العبد فلما أورد عليه أسباب الفاقة ورفعها عنه وجد العبد لذلك حلاوة فى نفسه وراحة فى قلبه فأوجب له ذلك تجديد الحب لربه قال ﷺ : «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى لحب الله وأحبوا أهل بيتى لحبى» . فكلما تجددت النعم تجدد له من الحب بحسبها .

* * *

(١) ابن عطاء الله السكندرى : كتاب التنوير ط ١٩٧١ صـ ٢٤١ ، ط ١٩٧٣ صـ ١٨٢